

الدين والأخلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

— { —

— لو أن الأستاذ لنعراوى خص عن أخلاق أمة من الأمم في نفوس آحادها لوجد اتفاقاً أو شبه اتفاق في خصائص تلك الأمة. ولا نمي بالخصائص أنها تفردت بأخلاق لا يوجد مثلها في أمة أخرى، فإن الأخلاق شائعة في النفوس البشرية، وإعنا نرى أن تلك الأخلاق أكثر شيوعاً فيها بالرغم من تفاوت نفوس آحادها في خصال الحمد والقدّم والخير والشر، ويستوى في تلك الخصائص من يقرأ فلسفة هيربرت سبنسر ومن يقرأ كتب الفزالي، ومن يقرأ شعر شكسبير ومن يقرأ شعر المتنبي، فإن تلك الخصائص المتوارثة لها عدوى تدبها في البيئة الواحدة وهي راسخة لا تغيرها أيام ولا سنوات قليلة، وأسبابها حوادث وشرائع اجتماعية ظلت تؤثر في الأمة زمناً طويلاً.

— فإذا نظر إلى أخلاق البيئة المصرية وخص عنها على ضوء هذه الحقيقة وجد أن الخصائص الخلقية شائعة يشترك فيها العظيم والحقير، ويشترك فيها الشيخ والأفندي كما يشترك فيها الفلاح وساكن المدينة بالرغم من التفاوت الظاهري في الماديات وفي مقادير رسوخ هذه الخصائص أو المقادير التي تظهر بها وإن كان التشابه في مقاديرها الكامنة أعظم. وأوجه الاختلاف الظاهري تظل ملازمة للمرء ملازمة كبيرة وإن حاول أن يحول بعض خصائص نفسه إلى جانب المقادير الموهوبة التي يخفيها في النفس إذا انتقل من طائفة إلى طائفة أخرى من طوائف الأمة؛ فالفلاح إذا ألبسته طربوشاً أو قبعة لا يخلع خصائصه ولا يستطيع خلدتها ويبقى فلاحاً بخصائصه، ولكنه ربما حاول أن يخفي بعض تلك الخصائص في نفسه.

والمذهب الجديد في الأدب هو إلى حد كبير كالطربوش أو القبعة التي يلبسها الفلاح؛ والمذهب الجديد كما أومحنا قد تأثر

فقالت بسرعة: « هذا صحيح ... كلهم خائن »

قلت: « لا تنجلي فالنساء أيضاً مثل الرجال. والطبيعة واحدة يا ستي! » فلم تقتنع يا أخي، وقد تعبت ومللت، وخطر لي مراراً أن أتركها وشأنها، ولم أكتفها أني فجرت من هذا الحب، ولكنني أشفق عليها وإن كان هذا الحب منها يفيظني ويحنقني. وما ذنبها إذا كانت لا تستطيع أن تدرك هذا الذي أيقنه لها؟ ثم إن عقولهن غير عقولنا — نحن الرجال عقولنا في ردوسنا، أو نحن على الأقل نتوهم ذلك، أما النساء فمقولن ليست في ردوسهن — هذا محقق — وقد قلت هذا مرة، فثارت هلي فتاة ذكية جميلة مثقفة وسألتنني وهي محنقة « أين إذن عقل المرأة إذا لم يكن في رأسها؟ » فحزت كيف أجيب، وكان الجواب حاضراً ولكن الانصاح عنه لاسبيل إليه، وألهمني الله أن أخرج من المأزق بقولي « عقولهن في قلوبهن » فأرضاها هذا التعبير الحسن عن معنى بعده الجملة شيئاً وما هو بسوء، وإعنا هو الطبيعي. فكيف تريد مني وهذا تصوري للأشياء أن أعرف الحب كما تريد النساء والشبان أن أعرفه ... خيالات وأوهاماً وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، ووفاء وحفاظاً إلى آخر هذا المراء الذي لا يكون؟

فهز رأسه متمججاً، ولم يقل شيئاً، فحمدت الله، واعتنمت فرصة سكوته واستأذنت في الانصراف
برهيم عبد القادر المازني



مباشرة بما أخذه من المذهب القديم وبما أخذه بطريق غير مباشر بعد أن تأثر الأدب الأوربي الذي هو وليد نزعة إحياء العلوم في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأدب والفكر العربي .

ولا يد أن الأستاذ النمراوى قد عاشر طوائف مختلفة من طوائف الأمة وإن لم يكن قد درس حالة الأدباء الخلقية دراسة المشير الذى لا يُخَانَل لا دراسة القائل بما يسمع . ولا بد أن الأستاذ قد أيقن من اتفاق طوائف الأمة في الخصائص الخلقية. ولو أنه أتبع له أن يدرس أخلاق الأدباء لوجد أن الخصائص الخلقية متشابهة فيهم بالرغم من المذهب القديم والمذهب الجديد، وأن التفاوت الفردى بين أفراد كل طائفة ربما كان أهم من تفاوت أدباء كل مذهب . فالاستقامة والصدق والعفة والزراعة والسباحة في الخلق والوفاء الخ ليست ملكا لمذهب في النثر أو الشعر . وكذلك اللؤم والكذب والتسدر والانصراف إلى الملذات والحقد ليست ملكا لمذهب في الشعر أو النثر . ولو أن الأستاذ بحث هذه الخصال لوجد أن خصال الحمد والدم لابد أن توجد في المذهبيين ، فإن هذه خصال وميول متواردة تزيدها حوادث الحياة وحالاتها قوة أو ضعفا . أما غير هذا الرأي فلا يأخذ به إلا من يسهل أن يخدعه التمسب لجماعته ، فإن المذهب القديم أو الجديد ليس دينا له أخلاق معينة لا يتمدها ، وإلا فإن الأديب الذى يكتب على طريقة الأدب الجديد متأثرا بالأدب الأوربي ويطرى الاستقامة ، يمد في نظر الأستاذ كافرا بالأدب الحديث ؛ وإن الأديب الذى يطرى أديبا فيها مجون من صنع شاعر من شعراء المذهب القديم يمد كافرا بالمذهب القديم . وعلى هذه القاعدة يكون أكثر شعراء العرب وأديبهم من عهد امرئ القيس (كما ذكر الأستاذ خلاف) إلى عهدنا هذا كافرين بالمذهب القديم ؛ وإذا لا يكون هناك مذهب قديم في عالم الوجود ، ويكون السيد توفيق البكرى متفريحا عند ما اختار لابن الروى أرجوزة التنوية في وصف الزنا ، ويكون الشيخ شريف مفتش اللغة العربية ورجل التربية متفريحا عند ما شرح أرجوزة اللواط لفظا ومعنى ، أو يكون الأديب الواحد تارة من أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات من زهد أبي نواس أو أبي المتاهية ، وتارة من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بمجونهما .

ويكون إذا حافظ إبراهيم من شعراء المذهب الجديد إذا قص قصص المجون في مجالسه أو روى أشعار المجون ، ويكون حافظ إبراهيم نفسه من شعراء المذهب القديم إذا تناول مسبحة وروى أشعار الزهد والتقوى ، ويكون كل أديب أو شاعر من شعراء أو أدباء المذهب القديم كما يكون حافظ في حالتيه . ويكون الأديب منهم من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بأبيات من لزوميات المعرى لا يرضى عنها الأستاذ النمراوى ، ومن أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات أخرى من اللزوميات يرضى عنها الأستاذ . وفى اللزوميات ما يرضى وما لا يرضى الأستاذ ؛ ويستطيع الأستاذ أن يتخلص من هذه الورطة فيقرر أن الشاعر الذى يجهل اللغات الأوربية ولا يقرأ الأدب الأوربي النقول إلى العربية هو من أدباء الفضيلة (والفضيلة كما قرر الأستاذ هي المذهب القديم) حتى ولو قال النثر والشعر في المجون والزيغ متأثرا بمجون وزيغ شعراء (الفضيلة) القدماء ممن كتبوا باللغة العربية ، وأن الأديب الذى يبرف اللغات الأوربية والذى درس آداب اللغات الأوربية والذى يمد نفسه من أدباء المذهب الجديد هو في الحقيقة من أدباء (الرذيلة) حتى ولو أطرى الفضيلة كما أطراها شكبير وفكتور هيجو . وإذا يكون من الواجب المحتوم أن الشاب الذى لا هو من أدباء المذهب القديم ولا الجديد ، لأنه ينقل عبارات أفرنجية نقلا حرفيا كالضحكة الصفراء (وغيرها من السبارات للضحكة التى يدمى أدباء المذهب القديم أنها من خصائص المذهب الجديد) أقول إنه من الواجب المحتوم أن يمد هذا الشاب . من أنصار المذهب القديم ما دام يطرى الفضيلة حتى ولو أطراها كما أطراها فكتور هيجو أطراء صحيحة ولكن بأسلوب عربى سقيم ، وأخشى أن هذا المنطق النريب قد يسوقنا إلى أن نمد الأسلوب السقيم إذا من خصائص المذهب القديم ما دام صاحبه يطرى الفضيلة ، وأن نمد من خصائص المذهب الجديد إذا كان صاحبه يطرى الرذيلة . على أننا لو فرضنا أن الأستاذ قد أصاب في جملة المذهب القديم مرادفا للفضيلة وأنه عقيدة دينية ، فكم من معتق عقيدة يقول بلسانه ما لا يتفق وأخلاقه وأعماله فكيف به وهو ليس عقيدة دينية حتى ولو كان كل أدبائه من عهد حسان بن ثابت إلى اليوم مزهين عن الفحش في قولهم وعلمهم

فكيف به وإيسوا كلهم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم بل كان منهم من بلغ من الفحش في القول والعمل غاية ليست بعدها غاية . ألا يرى الأستاذ أن جملة المذهب القديم مرادفاً للفضيلة مع هذه الحقائق يؤدي إلى أن يتناقض من يتناقض فيدعى أنه حامي حى الدين والفضيلة كي يتال ما يرادف هذه الانقلاب حسب اصطلاح الأستاذ فيلقب بزعيم النثر وسليمان الشعر ؟ إن بعض أدياء المذهب القديم قد نشروا هذا الاصطلاح بكل ما أوتوا من بيان ، كما كان كل فريق من الدول في الحرب المظلي يدعى أنه حزب الله المصطفى وأن الفريق الآخر حزب إبليس الخاسر عليه لعنة الله . فكان الانجليز يقولون إنهم يدافعون عن الفضيلة والحضارة والعدل والخير والحق ، وإن خصومهم خصوم هذه الصفات العليا . وكان الألمان ينشرون مثل هذه الدعوة لأنفسهم ضدوك النمل بالنمل . وكان كل فريق يضحك في سره من سذاجة من يصدق أقواله . وكذلك يفعل بعض الأدياء هنا وهم يخفون ما يعرفون من أن الشطط في القول لم يكن مقصوراً على مذهب في الفنون والآداب ، وأن مناصرة الفضائل ليست مقصورة على مذهب ، وأن جملة الفضيلة مرادفة للمذهب القديم والردية للمذهب الجديد شطط وظلم لا يتفق وروح العدل ائدى تأمر به الشرائع السماوية ، وأنه حتى على فرض أنهم يفعلون ذلك مناصرة للشرائع السماوية لا كسباً للرزق والشهرة والمكأة ، فإن مناصرة الشرائع السماوية بما ينقض عدل الشرائع السماوية من تعميم هو غاية الظلم يحمل مناصرتهم للشرائع السماوية مهزلة لا يرضاها الله ، فإن مناصرة الشرائع السماوية لا تكون إلا بفضائلها ، فكيف بهم وهم يعلمون أن شطط القول أو الفعل لم يكن قديماً ولا حديثاً مما يلتصق بطائفة دون طائفة ، وأنه لم يخلق الله مذهباً من مذاهب الفنون من عهد آدم إلى اليوم يصح أن يمد مرادفاً للفضيلة في جميع مظاهره ؟

قال الأستاذ النمراوي إن النزعة إلى التجديد بدأت منذ ثلاثين سنة . وقد أوتخنا أن التجديد بمعناه الأعم الذي شرحه الأستاذ بدأ منذ دخول نابليون مصر وذاع أيام محمد علي باشا وإسماعيل باشا ، فليس له مبدأ واحد . أما التجديد بالمعنى الأخص وهو التجديد في أبواب الشعر والنثر ومعانيهما فهو أيضاً مما لا

يحد بمبدأ واحد كما يعرف من يدرس حياة الأمم ونمو النزعات والأفكار فيها ، ولكن الذي يقرأ مقالات الأستاذ وأقوال بعض الكتاب يحسب أن النزعة إلى التجديد هذه نزعة متضامنة الأفراد متحدة العناصر متفقة الأهواء والمشارب والمبادئ بدأت بمؤامرة على الدين والأخلاق . والذي يدرس حياة الأمم ونمو الأفكار فيها يعرف أن هذا خيال في خيال . والذي يدرس النزعة إلى التجديد يرى أنها ليست ذات مبادئ واحدة وأنها نزعات مختلفة ، فإن من أدياء التجديد من يرى في المذهب الرمزي كل علو فني ، ومنهم من لا يستلذه ولا يقنع عاطفته إلى الفن لاهيامة وسقوط الصلة بين الرموز والحقائق التي تشير إليها الرموز ، ولتكاثر الصور فيه بعضها فوق بعض . وقد أوتخنا أن الرافعي — وهو في رأي أصدقائه زعيم المذهب القديم — كان أقرب إلى المذهب الرمزي في بعض كتبه مثل حديث القمر . وليس من البعيد أن يأتي يوم يمد فيه الرافعي من زعماء المجددين في الأدب الرمزي أو زعيمه الأكبر . ولا أحسب أن الأستاذ النمراوي كان منذ ثلاثين سنة متتبكاً تلك النزعات تتبع المآل للبحث الاجتماعي ، فهو إذاً يقول بالسماع . وقد أوتخنا في مقال سابق أن الأستاذ يصنع خيراً لو أنه اجتنب من المذهب الجديد ما يرتضيه وهو واجد الكثير للرتضى فإن تقدمه يكون أوقع وأنفذ ، وإصلاحه أندر ، وحكمه أعدل . أما جعله مذهباً مرادفاً للفضيلة ومذهباً آخر مرادفاً للردية ، فليس ذلك من اعتدال أمثاله من العلماء

(قارىء)

تحت الطبع :

حياة الرافعي

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

عن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً